سمات ومشابه عربية في أدب الكاتب الإيطالي:

جوفاني فيرغا Giovanni Verga

للأستاذ عيسى الناعوري
- الأردن -

اذا كانت المدرسة الادبية الواقعية تعزى فى فرنسا الى هونوريه دي بلزاك واميل زولا ، ويضمون اليها غي دي موباسان وغوستاف فلوبير ، فانها فى ايطاليا تعزى الى لويجي كابوانا وجوفاني فيرغا ، ويضمون اليها غراتسيا ديليدا .

واذا كان بلزاك ، فى فرنسا ، يعتبر نقطة البداية فى الحركة الواقعية ، واميل زولا عامل تثبيتها واديبها الاكبر، فان الايطاليين يعتبرون كابوانا نقطة البداية فى المدرسة الواقعية ، او الطبيعية (Verismo - Naturalismo) وفيرغا عامل تثبيتها واديبها الاكبر، على الاخص بروايتيه الشهيرتين (اسرة مالافوليا ـ I Malavoglia) و (المعلم السيد جيزوالدو ـ (Mastro Don Gesualdo)

وعلى الرغم من ان المدرسة الواقعية الايطالية جاءت بعد اختها الفرنسية ، وكانت متاثرة بها ، الا انها تختلف عنها فى ناحية مهمة هي انها انصرفت الى معالجة الواقع المحلي الصرف : الواقع الايطالي لا الانساني العام ، كما نرى ذلك فى اشخاص روايات فيرغا التى كانت صقلية مائة بالمائة ، واشخاص روايات غراتسيا ديليدا التى كانت من واقع جزيرة سردينيا وحدها ، ومن بيئاتها الفقيرة الخاملة المتالمة .

لقد تاثرت هذه المدرسة ـ سواء فى فرنسا ام فى ايطاليا ـ بالنهضة الصناعية والعلمية فى اوروبا ، وبظهور كارل ماركس وانجلز ، وما تركت فلسفتهما الاقتصادية المادية من اثر واسع فى الحياة العادية فى اوروبا ، حتى جعلت كل شيء يفسر تفسيرا ماديا واقتصاديا وآليا .

كان جوفاني فيرغا روائي الواقعية وخلاقها المبدع ، بينما كان صديقه وزميله كابوانا ناقدها الاكبر ، وناشر فلسفتها بما يمتاز به نقده من حيوية الافكار والانطباعات ، الى جانب مشاركته فى الخلق والابداع بما الفه من اقاصيص وروايات ومسرحيات منتزعة كلها ـ او اغلبها ـ من واقع الحياة الصقلية. ولعل اشهر اعماله الادبية قصته مركيز روكافيردينا ـ (Marchese di Roccaverdina) . وبالرغم من براعة كابوانا النقدية ، واهمية آثاره الادبية ، فان فيرغا يظل اهم منه كثيرا فى زعامة المدرسة الواقعية، وابعد اثرا .

وكان يمكن اعتبار اليساندرو مانتزوني خالقا للمدرسة الواقعية قبل كابوانا وفيرغا ، على الاخص بروايته الشهيرة (الخطيبان ـ I promessi sposi) لولا أن ما نتزوني كان حريصا على الجوانب الخلقية، فيحكم على الاعمال والاشخاص فى روايته على اسس خلقية ، لا مادية واقتصادية وعلمية ، بينما تترك المدرسة الواقعية الحكم على الاعمال والاشخاص الى القاريء نفسه ، لا الى المؤلف ، كما ان هذه المدرسة كانت تحرص على عدم الكشف عن الدنايات والمساويء الانسانية علنا او التشهير بها امام القراء ، بل كانت تعطف على المحرومين من ابناء الشعب ، وتشيد

بمزاياهم الايجابية ، واستسلامهم الى الالم والبؤس، ودفاعهم عن الشرف ، وما الى ذلك . وهذه المزايا كلها نجدها مصورة اروع تصوير فى آثار فيرغا الادبية المستمدة من الحياة الصقلية الشعبية الكادحة ، المستسلمة الى المصير المحتوم .

فمن هو جوفاني فيرغا هذا ؟

ولد فيرغا فى مدينة كاتانيا ، فى صقلية ، عام 1840 ، وتوفي فى عام 1922 ، بينما ولد زميله كابوانا ـ وهو ايضا من كاتانيا ـ قبله بعام واحد ، اي عام 1839 ، وتوفي قبله بسبعة اعوام ، اي عام 1915 .

ولقد احس فيرغا منذ حداثته بميل شديد الى الآداب ، وبحاجته الى بيئة تساعده على تغذية ميله هذا . وفى عام 1865 غادر صقلية الى فلورنسا حيث وجد البيئة التى يريد . فاقام فيها مدة ، ثم انتقل منها الى ميلانو ، وهناك بدات حياته الادبية بدايتها الجدية . فاقام فى ميلانو الى ان عاد منها عودته النهائية الى مسقط راسه ـ كاتانيا ـ حيث توفي عام 1922 .

فى الفترة التى بدا فيها فيرغا حياته الادبية كانت الحركة الادبية الواقعية واسعة الانتشار فى فرنسا واوروبا ، وكانت قد ظهرت كذلك حركة ادبية جديدة فى مدينة ميلانو نفسها ، اطلق على اصحابها اسم (ذوي الشعور الشعث) وبالايطالية (Scapigliati) ـ وهي اشبه بحركة الخنافس، او الهيبيين فى يومنا هذا ـ فهي مدرسة تمردية ، قليلة الانصار ، قصيرة العمر جدا : اذ لم يزد عدد كتابها وشعرائها البارزين على الستة ، وهم : (Giuseppe Rovani) مؤسس هذه الحركة وزعيمها ، و (Iginio Tarchetti) و (Giovanni Camerana) و (Carlo Dossi) و (Emilio Praga) وهذا اشهرهم ، واخيرا (Arrigo Boito) . اما عمر هذه الحركة فلم يزد على عشر سنوات (من 1860 الى 0 187) .

لقد اراد هؤلاء الروائيون والشعراء الشبان ان يتمردوا على مثالية المدرسة الرومنسية وحساسيتها المفرطة ، ولكنهم انغمسوا كل الانغماس فى حياة فوضوية بوهيمية ، وفى الكفر بالله والانسان والوطن والفن ، وبكل المثل العليا فى الحياة ، ومضوا ينشدون النسيان في تعاطي الخمر والافيون.

وكان لذلك طبيعيا ان يموت بعضهم بالسل والاسقام، وينتحر بعضهم كذلك : فقد قضى (تاركيتي) بالسل وعمره ثمانية وعشرون عاما ، وقضى (كاميرانا) منتحرا ، ومات اشهرهم (براغا) صغير السن لم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره .

عند ظهور هذه المدرسة المسلولة ـ او فلنقل « المسطولة » ! ـ كان فيرغا فى حدود الثلاثين من عمره، وفى عز انتشارها كان قد وصل الى فلورنسا، ثم انتقل قبل وفاتها الى ميلانو ـ مهد هذه الحركة وقبرها ـ وفى هذه الفترة جاءت اعماله الادبية مزيجا مضطربا من اثر الواقعية الفرنسية ، والتمردية الفوضوية الميلانية ـ مدرسة ذوي الشعور الشعث ـ . وهذه الاعمال التى انتجها فيرغا هي : (خاطئة ـ Una Peccatrice) و (حكاية بلبل ـ Storia di una capinera) والنمر الملكي ـ (Tigre Reale) و (ايروس Eros) و (حواء Eva) .

وعلى الرغم من ان فيرغا قد وضع هذه الروايات بعيدا عن الارض الصقلية ، وفى وسط المدن الشمالية الكبيرة الملأى بالنشاط والحياة ، الا انه كان يعيش بروحه فى ارضه الصقلية ، ومنها ظل يستمد الهامه وشخوصه وصوره . وعلى الرغم من النجاح الذى لقيته هذه الروايات ، فانها لم تبلغ السمت الفني الذى كان فيرغا يتوق الى تحقيقه . ولم يهتد الى حقيقته الفنية الا حين سلك سبيل الواقعية الادبية ، فهناك رسخت شهرة فيرغا بين عمالقة الادب الايطالي ، ولاسيما حين ظهرت روايتاه الشهيرتان (I Malavoglia) (Mastro Don Gesualdo) المستمدتان من واقع الحياة الصقلية الكادحة ، المذعنة للقدر الرهيب ، وحين اصبح شخوصه ممن يدعوهم باسم المغلوبين ـ (Vinti) لان الاقدار هي التى تسيرهم بارادتها دون ان يكون لهم فيها راي ، ولا فى تبديلها يد .

ولا فى تبديلها يد؛ بدات الفترة الجديدة فى حياة فيرغا الادبية بقصة عنوانها Nedda ظهرت عام 1874 ، ثم تلاها بعدد من المجموعات القصصية الواقعية الاخرى فى كتبه التالية: (حياة الحقول ـ Vita dei campi) 1880 ، و (خبز اسود ـ Pane nero) 1882 ، و (اقاصيص قروية ـ Novelle rusticane) 1883 و (فى الطرقات ـ Per le vie) وغيرها . الا ان فيرغا بلغ الذروة فى روايتيه (اسرة ـ

مالافوليا ـ والمعلم السيد جيزوالدو) ، وقد ظهرت الاولى عام 1881 ، والثانية 1889 . ويمكن ان تضاف اليهما روايتان اخريان ، هما : (زوج ايلينا ـ (Il marito di Elena عام 1882 ؛ و (من حصتك على حصتي ـ Dal tuo al mio) عام 1906.

في هذه الروايات انصرف فيرغا قبل كل شيء الى النظر الى الانسان في عفوية احاسيسه واعماله ، والى الدنيا في الاعيب الاقدار العجيبة وتحكمها بمصائر البشر . فهو شديد العطف على الضعفاء ، والمعتوهين ، والمغلوبين على امرهم الذين يحنون رؤوسهم لمشيئة القدر المستبد ، يتفهمهم بعطف عميق حتى في اخطائهم .

ولقد اهتدى فيرغا اذن الى نفسه ، اذ عاد بروحه وقلمه من دنيا القصور الباذخة والحياة المترفة في المدينة الصاخبة ليستروح عبير ارضه الصقلية ، ويعيش مع شعبه ، ويتذوق طعم الخبز البيتي اللذيذ . لقد افلحت الواقعية في ان تجعله يعيش بسلام مع نفسه ، ويستمد فنه مما كان يعيش في اعماق نفسه من بيئته الصقلية الاولى .

صحيح أن معاصري فيرغا كانوا قد استقبلوا رواياته واعماله الادبية بشيء من البرود وقلة الاهتمام ، غير انه ما كادت تميل شمس الواقعية الى الغروب ، وتصبح شيئا من حصة التاريخ الادبي ، حتى اصبحت تلك الروايات والاقاصيص مثار الاعجاب الواسع لدى القراء والنقاد ، واخذت مكانتها الرفيعة بين روائع الآثار الادبية الكلاسيكية .

— * —

« ان فيرغا اليوم واحد من اوسع الكتاب شهرة وذيوعا في الادب الايطالي .. وعلى الرغم من تغير الظروف التاريخية لا يزال اكثر ما يكون حياة في ضمير الاجيال الجديدة التي تعتبره الكاتب الذي مجد اعظم الاخلاق الانسانية نقاء ، والممجد الاكبر لقداسة الحياة ، ولنضال الرجولة اليومي للبقاء .. واغانيه تظل ضمن نطاق الانسانية ، الا انها تسمو على انسانيتها بتحمل الالم برجولة حقة . هذه هي رسالة فيرغا الاجتماعية : فالاب نتوني هو رمز للعظمة الانسانية السامية التي تعرف كيف تؤلف بين شريعة الحياة المتالمة وشريعة الله » .

هذه الفقرة اخترتها من كتاب (تاريخ النقد الفيرغوي ـ (Storia della critica Verghiana) لصديقي الكاتب الايطالي (Giorgio Santangelo) الاستاذ في كلية الآداب في جامعة باليرمو . وكنت قد قرات هذا الكتاب النفيس قبل ان اشرع في دراسة آثار فيرغا ، لكي يساعدني على فهم هذه الآثار الادبية فهما صحيحا . والحقيقة انه افادني كثيرا بان اطلعني على آراء العديد من النقاد الايطاليين في فيرغا وادبه ، حتى لقد خيل الي انه لم يبق جانب من جوانب فيرغا الفنية الا اشبع درسا وتحليلا .

وحين عكفت على دراسة روايتي فيرغا الكبريين (اسرة مالافوليا ـ والمعلم السيد جيزوالدو) وجدت ان هناك نقطتين جديرتين بالنقاش والتحليل رغم كل ما قاله النقاد في اعمال فيرغا الادبية . وانا في هذه العجالة اقتصر على هاتين الروايتين وحدهما من بين انتاج فيرغا كله .

النقطة الاولى تتعلق بالحتمية القدرية (Fatalismo) التي يراها النقاد في آثاره ، والتي اراها انا بطولة ورجولة ، لا خنوعا لقدر محتوم لا يمكن قهره .

ويبدو لي أن هذه الحتمية التي يراها نقاد فيرغا قد اصبحت لديهم ماركة مسجلة بالنسبة الى اعماله الادبية ، ولاسيما الواقعية منها ، فهو عندهم لا يعرف الا بها .

وحين تذكر هذه الحتمية ينصرف ذهننا الى قطعان بشرية مذعنة لمصيرها المحتوم : تسير بعيون مغمضة ، ورؤوس منحنية خنوعا ، ولا تدري ـ او لعلها لا تملك ان تدري ، او تسال ـ ان كانت تساق الى المسلخ ام الى المرعى ، لان ارادتها مشلولة ، ومسيرها مخطوط منذ الازل في لوح القدر من نقطة انطلاقها حتى النهاية .

ولكن هل كان كذلك حقا ابطال فيرغا ؟ (اكرر هنا انني اتحدث عن «اسرة مالافوليا ، وجيزوالدو» بنوع خاص لئلا ازيد الموضوع اتساعا ، واطلق الجناحين اكثر مما يجب) .

فلنحاول ان نلقي نظرة سريعة على كل من هاتين الروايتين لكي نصل من ذلك الى حيث نضع اصابعنا في موضع الجراح من اولئك (الابطال) الذين يابى فيرغا الا ان يدعوهم باسم (المغلوبين ، او المهزومين ـ (Vinti :

1 ـ اسـرة مالافوليـا : I MALAVOGLIA

فى هذه الرواية لدينا عـدة ابطـال ، غير ان الرئيسيين منهم ثلاثـة ، هم : السيـد نتونـي ـ والـدار ، وتـدعـى باسـم « دار الزعـرورة » Casa del nespolo والمركـب ، ويدعـى باسـم « العناية » Provvidenza)) . وتتألـف اسـرة مالافوليا من : الشيخ نتوني ، والابن باستياناتسو . والكنة ماروتسـا (Maruzza) وتدعـى ايضـا (La Longa) ، وكذلك من الاحفـاد (نتوني ـ لوكـا ـ مينـا Mena ـ اليسندرو ، ويدعى أيضا مصفرا ، اليسي ـ ثم ليا) . انها اسرة من صيادي الاسماك يحاول افرادها ان يتعاونوا فيما بينهم على العيش من مهنة واحدة. وفى احدى السنين العجاف يحاول السيد نتوني ان يتغلب على الفقـر والجـوع بتجارة الترمس (Lupini) ولاجل ذلك يستديـن من احد المرابين (واسمه كروتشيفيسو) خمسمائة ليرة . غير ان عاصفة تهب على المركب فتغرقـه مع حمله من الترمـس ، ويغرق معهما كذلـك الابن باستياناتسو . اما المركب فينتشل ويعاد اصلاحـه للعمل من جديد ، واما الدين فيظـل دون تسديـد رغم كل المحاولات والجهود التى يبذلها الشيخ نتوني وسائر الاسرة . واخيرا تضطر الاسرة الى التخلي عن الدار العزيزة ـ دار الزعرورة ـ ثم عن المركب ـ العناية ـ لتسديد الدين . وحين تتجرد الاسرة من الدار والمركب تأخذ المصائب فى التـوارد عليـها : فتموت الكنة بالكوليرا، ويقضي الحفيد لوكا فى معركة بحرية ، والحفيد الآخر نتوني ، بعد ان يخدم فى الجندية ، يعود الى البطالة ، وينغمـس فى اعمـال التهريب ، وبالتالي يدخل السجن ليقضي فيه خمس سنوات فى القيود لطعنه ضابط الحرس فى اثنـاء معركة ليلية بين حرس الجمـارك والمهربين . وبعد ذلك تغادر الحفيدة ليـا المنزل ولا يعود احد يراها . ويموت كذلك الشيخ فى احد المستشفيـات بعد ان اثقلته السنون والمصائب معا . والحفيـدة (مينـا) لا تجد زوجا بسبب المصائب المتلاحقة التى تنصـب على بيت مالافوليا ، فتنصرف الى العناية باخيهـا الاصغر (اليسي) واسرتـه . واليسي هـذا هو وحده الذى يتزوج جـارة له تدعـى (نونتسياتـا ـ Nunziata) ويتمكن من استعادة الدار التى كان استردادها آخر امنية للجد قبل احتضاره . وبعدئذ يخرج الحفيد نتوني من السجن ويمضي بعيـدا الى حيث لا يستطيع احد ان يعرفه .

2 ـ المعلم السيد جيزوالدو ـ MASTRO DON GESUALDO

كان جيزوالدو بناء ، وابن قروي يملك فرنـا للجير (مشيدة) . ناضل نضالا عنيدا منذ طفولته ضد بؤس الفقراء وفاقتهم : « حمل الكثيـر من الحجارة على منكبيه .. وقضى العديد من الايام دون خبز » (ص 76) . لقد عمـل اجيـرا ، وبنـاء ، وعديدا من الحرف الاخرى ، ولكنه كان دائما مصمما على الانتصار على ظروفـه الاليمـة ، والتغلـب على عناد الاقدار . وبفضل عمله المتواصل دون ملل او تعب استطاع ان يتغلب على الظروف العسيرة ، وان يقترن بفتاة تدعى (بيانكا تراو ـ Bianca Trau) كانت الاخيرة من اسرة نبيلة خفض الزمان جناحها . غير ان هذا الزواج ، الذى فرضته علـى الطرفيـن المصالح المادية وليس الحب المتبادل ، يصبح بداية لمصائب خطيرة ، ثم يفضي الى الدمـار . والثمـرة الوحيدة لهذا الزواج ، وهي الابنة ايزابيلا ، تعيش بعيدة عن ابيها الذى تخجل من اصله الوضيع ، ثم تصبح زوجة لاحد دوقات باليرمو . وتموت الزوجة (بيانكا) بالكوليـرا ، ويصـاب جيزوالـدو نفسـه بالسرطان ، فيقضي ايامه الاخيرة فى قصـر زوج ابنته فى باليرمو ، ويموت بعد ذلك وحيدا يائسا بعد ان يرى ضياع الثروة التى جمعهـا بكـده وعرقـه المتواصلين جميعا ، والتى كانت اعز عليه من حياته. وتقول الرواية انه « هناك ، امام الثروة التى يملكها ، اقتنع بانه انتهى حقا ، وان كل امل له قد ضاع .. انه يود لو يستطيع ان يدمر بضربة واحدة كل الثروة التى جمعها شيئا فشيئا . يود لو امكن ان تذهـب املاكه معه ، قانطة يائسة مثله ! » (ص 347)

فى البداية تستولي اخت جيزوالدو وزوجها على املاكه وثروته ، غير ان زوج ابنته لا يلبث ان يستولي على كل شيء رغـم احتجـاج الشيـخ جيزوالـدو المحتضر الذى « كان بطنه منتفخـا كالقربـة ... والانياب الكلبية فى داخله تنهش كبـده نهشـا » (338)

— * —

فى هاتين الروايتين نلاحظ كيف جعل فيرغا الحتمية القدرية تسيطر من البداية الى النهاية ، او هكذا ارادها ، لان فيرغا يرى « ان الناس ـ اخيارا كانوا ام اشرارا ـ يجثـم عليهم كابـوس محتـوم صارم ـ كما يقول باسكواله لامانا فى الجزء الثالث

من كتابه (تاريخ الادب الايطالي) ص 112 ـ يجتث كل طموح لهم نحو الرخاء ونحو الطمانينة ، ويعاقب بقسوة ظالمة كل ارادة لهم للخروج من قشرتهم ، والارتقاء فوق ظروفهم الاجتماعية » .

ومع ذلك فان هناك، الى جانب الاقدار والكابوس الصارم ، شيئا آخر هو « البطولة » ، هو الصمود حتى النهاية فى النضال الذى يرافق سائر احداث اسرة مالافوليا والمعلم جيزوالدو . ان البطليين التاعسين لا يرضخان للمصائب، ولا ينحنيان امام المصائب والعوائق الرهيبة التى يضعها القدر فى طريقهما ، بل يسيران رافعي الرأس دون ان يعرفا اليأس والهزيمة .

ان الحتمية القدرية ليست حقيقة مطلقة فى الحياة ، بمعنى أن الانسان يجب ان يحني راسه مستسلما لها دون نضال . وكذلك هي فى روايتي فيرغا : فى حياة اشخاصه وتصرفاتهم ومعتقداتهم . انها ليست حقيقة مطلقة لا يمكن التغلب عليها بقوة الارادة ورجولة النضال ، بمقدار ما هي عقيدة مسيطرة على تفكير المؤلف نفسه . ان فيرغا يلح كل الالحاح فى ابرازها فى رواياته . وعلى الرغم من انها ليست حقيقة لا علاج لها ، الا ان المؤلف يبحث عنها عامدا ، ويريدها دون علاج لابطاله الذين يدعوهم (المغلوبين) لكي يحدد لهم قسمتهم تحديدا قسريا منذ الازل : اي أن «يعملوا ويتألموا» ـ كما يقول الناقد الايطالي سابينيو (Sapegno)

ان اشخاص فيرغا ليسوا من اختراع خياله . هذا صحيح ، ولكنهم مخلوقات آدمية ينتقيها هو من الواقع البائس انتقاء بلحمها ودمها ، ويعرضها على المسرح لكي تمثل ادوارها الحقيقية التى يلازمها البؤس والنحس . غير اننا فى هذا الواقع الذى يعرضه لنا المؤلف نلمس لدى فيرغا ميلا طبيعيا ـ أو هل نقول « حتميا » ، حسب اعتقاده بالحتمية ؟ ـ الى المأساة اكثر منه الى الملهاة، او الى بساطة الحياة وعاديتها . وقد يكون ذلك لان حياة جزيرة صقلية كانت حينئذ ـ كما صورها فيرغا ، وكما صورها من بعده جوزيبني تومازي دي لامبيدوزا فى روايته (الفهد) او (Il Gattopardo) كما هو عنوانها بالايطالية ، بكثير من الاغراق فى التشاؤم ـ منفى مليئا بالتعاسة والجهل والفقر والظلم .

يقول ماتزوني (Mazzoni) : « ان المؤلف يعطينا اشخاصه كما يريدهم هو ، ويجعلهم يتصرفون كما نحب نحن ، حتى فى اكثر حركات حياتهم سرية . انه يسمع اشد اصواتهم خفاء ، ويتجسس حتى على تنهداتهم فى ليالي الارق » ... وانا احب ان اضيف هاهنا ان فيرغا يستحضر اشخاصه ومعهم بيئاتهم الحقيقية . وعلى الرغم من انه كان يصر دائما على ان فنه لا صلة له بشخصه ، وينفي الذاتية عنه ، فان ما يضعه من كلام على افواه اشخاصه ينسجم كل الانسجام مع البيئة النفسية والروحية التى يحسها هو نفسه ويريد ابرازها ، اي مع عالمه الخاص . وطبيعي انه يقدم لنا الحقائق فى لمسات من يدفنان بارع ، لا وقائع تاريخية مجردة من حياة الجزيرة فحسب . والمساكين الذين يناضلون لاجل الرغيف ولاجل السلام فى جزيرتهم هم وحدهم الاشخاص الذين يتعمد فيرغا اختيارهم ليفصل على قياسهم فكرته الخاصة فى القدرية وفى المصير المحتوم وجبروته . غير اننا نراهم ، رغم الهزائم المريرة ، على استعداد دائم لمتابعة النضال بكل جدارة ، ومن غير هدنة . صحيح انهم قد ينتهون الى الخيبة والقنوط ، ولكنهم يسقطون سقوط الابطال ، لا سقوط الضعفاء والجبناء ، وفى بعض الاحيان قد يبلغ نضالهم ـ ولو متأخرا جدا ـ الى النصر ، والى استرداد المتاع الذى فقدوه ، كما راينا فى (اسرة مالافوليا) وفى بعض جوانب فى (المعلم السيد جيزوالدو) ايضا ، كما سأشرح ذلك فى ما يلي :

فى (اسرة مالافوليا) يناضل الشيخ نتوني طويلا ، وتناضل معه اسرته كلها كذلك ، لكي يتوصلوا الى استرداد (دار الزعرورة) . غير ان السيد نتوني نفسه لا ينتصر ، لسوء حظه ، الا بعد موته : ففى اللحظة الاخيرة يبشره حفيده اليسي بانه استطاع ان يسترد الدار . كان السيد نتوني حينئذ على عتبة العالم الآخر الذى لا عودة منه ، غير انه احس بأن الحياة لم تخدعه خداعا تاما ، وبأن العدالة ما تزال توجد على الارض .

واليكم ما تقوله الرواية :

« حين اخبروه بعد ذلك انهم استعادوا دار الزعرورة ، وارادوا ان يعيدوه معهم الى (تريتسا ـ Trezza) من جديد ـ كان حينذاك فى المستشفى طبعا ـ اجاب بنعم ، ثم نعم ، بعينيه اللتين عادتا الى الاشراق ، وكاد فمه ينفرج عن ضحكة عريضة : ضحكة اولئك الذين ما عادوا يعرفون الضحك ، او الذين يضحكون للمرة الاخيرة . ولكن الضحكة ظلت

مغروسة فى قلبه كالنصل . ذلك ما جرى لاسرة مالافوليا حينما عادوا يوم الاثنين فى عربة (العم الفيو) ليعيدوا جدهم معهم الى المنزل فلم يجدوه» (ص 245)

اذن فقد انتصر السيد نتوني على حياة الفقراء المريرة بنضاله الذى لم يكن لنفسه فحسب ، ولا اينال النصر وحده : بل لتظل ثمرة عنائه لاحفاده من بعده . ان النصر يظل دائما نصرا ، ولا يقلل من أهميته موت المحاربين الشجعان : فالنصر الحقيقي لا يجيء من دون تضحية . فى جميع الحروب هناك من يحارب ويسقط لاجل الآخرين ، وآخرون يفوزون بمكاسب تلك التضحية . فالمحارب انما يحارب لكي ينتصر وهو يعلم حق العلم بأن الموت ينتظره فى الحرب ، غير ان تضحيته لا تذهب عبثا الا اذا لم يستفد احد منها من بعده . والتضحية هنا ، ونضال السيد نتوني الطويل الشاق ، استفاد منهما آخر احفاده (اليسي) .

حتى المركب (العناية) انتصر على هياج الامواج والعواصف : كان حينا يمتلىء بالماء حتى ليخشى عليه من الغرق ، وحينا يخرج من مصارعة العواصف محطما . غير انه فى كل مرة كان يعاد اصلاحه ، فيعود سليما ومستعدا لصراع جديد مع عاصفة اخرى، واخيرا تخلى عنه اصحابه الى المرابي كروتشيفيسو تسديدا للدين وهو فى حالة جيدة ، وظل يعمل حتى وفاة صاحبه الاول .

اما فى رواية المعلم جيزوالدو فان جيزوالدو نفسه هو الذى انتصر . لقد راينا انه كان قد ولد فى اسرة بائسة . واليكم ما تقوله الرواية فى حياته النضالية :

« كان فى حركة دائبة : يعمل دائما ولا تستريح قدماه ابدا ، من هنا الى هناك ، فى البرد والحر والمطر ، وراسه مثقل بالافكار ، وقلبه متضخم بعدم الاستقرار ، وعظامه محطمة من التعب ، لا ينام اكثر من ساعتين اذا تيسر ذلك وكيفما تيسر : فى قرنة اسطبل ، او خلف سياج ، فى العراء او على الحجارة ، ياكل قطعة خبز اسود حيثما كان : على ظهر البغل ، او فى ظل زيتونة ، او على طرف حفرة ، فى الملاريا اوفى دوامة من البرغش لم يعرف الاعياد ولا عطلة الاحد ولا عرف قط كيف يضحك ضحكة مغتبطة ... ولا وجد لديه ساعة واحدة مثل تلك الساعات التى كان يستمتع بها اخوه (سانتو) على حسابه فى الحانة » (ص 78) .

وعلى الرغم من كل هذا البؤس والعناء فان دون جيزوالدو لم يكن قط رجلا متخاذلا : لم يستسلم الى مشيئة القدر ، بل كان يريد ، بأي ثمن ، ان « يخرج من قشرته ويرتقي فوق ظروفه الاجتماعية الاصلية » . وقد راينا في ما تقدم كيف استطاع بفضل عمله الدائب وتصميمه الحازم ان يصل الى مكانة اجتماعية مرموقة يحترمها الآخرون ، وان يصبح مرهوبا حتى لدى الشخصيات البارزة الضخمة فى بلده ، وان يقترن بفتاة من اسرة ارستقراطية . حتى ابنته الوحيدة اقترنت بأحد دوقات باليرمو .

صحيح انه فى النهاية كان لابد ان يقضي بالسرطان ، الا انه مات بطلا لا خاملا وضيعا . وعدا ذلك ـ وهذا مهم جدا ـ مات جيزوالدو واثقا من ان ابنته ـ ثمرة زواجه الوحيدة ـ لن تعرف البؤس والحرمان ، بل ستنعم بثمرة تضحيته وكفاحه .

ومن هم الذين كافحهم المعلم جيزوالدو ؟

لقد كافح الجميع ، وكافح كل شيء : كافح البؤس ، وضعة الاصل ، وقسوة الحياة ، وكبار الشخصيات فى البلد ، وتحكم والده المتعنت ، وحسد اخيه وجشعه ، وكافح كذلك حسد شقيقته وزوجها ، بل لقد كافح حتى (تاني ـ Tanni) الانتهازي، وهو ليس سوى زوج لخادمته (ديوداتا ـ Diodata) . . وكذلك كافح حقد الاخوين (تراو) شقيقي زوجته ، كما كافح غرور صهره الدوق ، ومساويء الكاهن (دون لوبي) وخبثه . وكافح الملاريا ، وقوى الطبيعة التى تعاكسه فى صف خصومه الناقمين الحاسدين . وفى كل مرة كان جيزوالدو يخرج من هذا الكفاح منتصرا ، حتى اللحظة الاخيرة التى ادار فيها وجهه نحو الحائط ـ كما فعل والده من قبله ـ « وبردت اطرافه فجاة ، ثم سكتت حركته نهائيا » ـ كما يقول المؤلف (ص 367)

لقد مات السيد جيزوالدو والسيد نتوني مالافوليا قانطين ، هذا صحيح ، ولكنهما ماتا بكرامة وانفة . كانا من الابطال الحقيقيين الذين يظلون متنكبين سلاحهم حتى النفس الاخير فى كفاحهم ضد حتمية الاقدار . وهذه البطولة فى الصراع

الانساني لا يجوز ، فى اعتقادي ، ان نخضعها لفكرة الحتمية وتحكم الاقدار ، كما يشاء النقاد الايطاليون ان يعتبروها فى روايات فيرغا . انها بطولة ، وليست خضوعا واستسلاما للاقدار .

ونجيء الآن الى النقطة الثانية فى روايتي فيرغا الكبيرين ، وهي (السمت والمشابه العربية) التى جعلناها عنوانا لهذه المحاضرة برمتها .

اننا هاهنا نصل الى نقطة فيها شيء من الحرج ومن اثارة الفضول معا . وما اظن احدا قد اثارها من قبل ، أو اهتدى اليها .

فى روايتي فيرغا الكبيرين وجدتني ازاء **بعض العناصر التى يبدو انها متاثرة بالطابع العربي ، مباشرة او غير مباشرة ، لان البيئات العربية واللغة العربية ما يزال فيها الى اليوم ما يشبهها .**

ومن المؤكد ان فيرغا لم يكن يعرف ان فى اعماله الادبية مثل هذه العناصر الاجنبية الواضحة. ولعله لم يخطر بباله قط ان كاتبا عربيا سيجيء يوما من بلد بعيد فى الشرق ليكشف عن سمات عربية فى ادبه .

ولكن التاثير العربي فى صقلية امر غير منكور، على كل حال ، ولا هو بالشيء الذى يمكن كتمانه ، فلقد حكم العرب الجزيرة قرنين من الزمن ، وكان طبيعيا لذلك ان يتركوا آثارا ملموسة فى اهلها ، ولاسيما اذا عرفنا أن تأثيرهم الاجتماعي والثقافي قد استمر اكثر من قرنين بعد خروجهم من الجزيرة .

لقد خطر لي فى البداية ان اجعل عنوان هذه المحاضرة ، وبشكل خاص هذا القسم منها : (اثر العرب فى أدب فيرغا) ، غير ان عدم يقيني التام من هذا التأثير مباشرة جعلني اكتفي بعبارة (سمات ومشابه عربية) ، وهي اقرب الى المنطق ، وربما كانت اقرب الى الصحة . وسأحاول فى ما يلي ان ابين المشابه اللغوية والروحية والواقعية بين البيئة الفيرغوية والبيئات العربية .

ان السمات التى اعنيها يمكن تصنيفها فى ثلاث فئات :

1 ـ المفردات والجمل

2 ـ العادات والبيئات الشعبية

3 ـ الامثال والحكم

وسأمضي الآن فى استعراض هذه الفئات واحدة واحدة :

1 ـ المفردات والجمل :

فى روايتي فيرغا الكبريين مفردات لا شك فى انها عربية الاصل لفظا ومعنى . ومنها الالفاظ التالية ، وهي كلها من رواية « ما لافوليا » ما عدا الاخيرة منها فهي من « المعلم جيزوالدو ») :

1)	CATRAME	قطران
2)	CARRUBBO	خروب
3)	BABAU	بعبع
4)	SOMMACCHI	سماق
5)	ZAFFERANO	زعفران
6)	SATANASSO	شيطان
7)	SALAMALECCHI	سلامات ، او مجاملات (من «السلام عليكم»)

والى جانب هذه المفردات استعمل فيرغا جملا مركبة ليست ذات لفظ عربي او طبيعة عربية فى كتابتها ، الا أن لها مثيلات فى التعبير العربي ، مما يبدو معه الامر غريبا اذا لم تكن هذ التعابير تحمل آثار الطابع العربي . واليكم بعض هذه العبارات ، مع ما يقابلها بالعربية ، واغلبها عامي ، ولكنني مضطر الى تحويله الى تعبير فصيح ، مع ثقتي التامة من ان فى البلدان العربية الاخرى ما يقابله :

1 ـ يضع حجرا على الماضي
(جيزوالدو 238)

1) Mettere pietra sul passato

2 ـ من اخذ مالك خذ روحه
(جيزوالدو 321)

2) A chi ti vuol pigliar la roba levagli la vita

3 ـ يعبيء هواء للصيف
(جيزوالدو 271)

3) Prendere il fresco per l'estate

4 ـ الفسيل القذر لا ينشر على السطوح
(جيزوالدو 275)

4) I panni sporchi si lavano in casa

5 ـ الامثال لم تكذب قط
(مالافوليا 14)

5) Il motto degli antichi mai menti'

6 ــ رآه بعينيه اللتين سيأكلهما الدود
(مالافوليا 16)

6) Li avevi visti con quegli occhi che dovevano mangiarseli i vermi

7 ــ فلان مثل الحيط المنخفض
(مالافوليا 73)

7) Io sono come il muro basso

8 ــ واقع بين المطرقة والسندان
(مالافوليا 85)

8) Stava fra l'incudine e il martello

9 ــ لا يسمح بأن تقف الذبابة على أنفه
(مالافوليا 97)

9) Non si lasciava posare le mosche al naso

10 ــ المصائب تعلم الحكمة
(مالافوليا 119)

10) Il giudizio viene colle disgrazie

— * —

وهناك كثير من مثل هذه العبارات الايطالية التى تقابل عبارات عربية مثلها وتطابقها كل المطابقة. وليس قصدي استعراضها جميعا بل تقديم بعض النماذج فحسب لكي انطلق بعد ذلك الى الفئة الثانية، وهي :

2 ــ المشابه فى العادات والبيئات الشعبية :

وهذه نقطة اخرى جديرة بالابراز والدرس ، وهي تتعلق بالعادات الشعبية التى رسمها فيرغا فى رواياته . ومن السهل ان نجد ما يماثلها تماما فى الحياة الشعبية العربية . وأنا أكرر انني اورد ما أعرفه فى بلدي ، يقينا مني بأن فى البلدان العربية الاخرى ما يماثله . وهاكم بعض تلك العادات :

1 ــ (مالافوليا ــ ص 44) ــ يدور الحديث على موت الابن باستياناتسو ــ وعند ذكر العادات الشعبية يعرفنا المؤلف كيف ان الاصدقاء يحملون الى بيت الفقيد هدايا من العجائن والبيض ، ومن خيرات الله .

ان مثل هذه العادة ما يزال متبعا الى اليوم فى القرى الاردنية ، مثلا ــ وليس من شك فى أن هناك مثله فى اقطار عربية اخرى ــ ففى القرى عندنا ليس الاصدقاء وحدهم هم الذين يحملون الى بيت الفقيد مختلف الهدايا ، بل تشترك القرية كلها فى ذلك كمعنى من معاني المؤاساة والمشاركة القلبية فى المصاب . وهم يحملون الارز ، والشاي ، والخراف، والدجاج ، والطحين . والقهوة . وحتى الحطب لطهو الطعام والخبز وما الى ذلك من الحاجات البيتية . والقرويون يؤدون هذه المشاركة اللطيفة لمساعدة اسرة الميت وتعزيتها ، من جهة ، ثم لانه لا يجوز ان تتحمل اسرة الميت وحدها كل النفقات ــ وهي غير قليلة ــ

2 ــ (مالافوليا ــ 80) فى ما يتعلق ببواعث الشؤم تقول الكنة سانتوتسا : « ان نقود العم كروتشيفيسو تحمل معها الدواهي ! ففى هذه الليلة ايضا سمعت الدجاجة السوداء تصيح » .

وعندنا ايضا اذا صاحت دجاجة مثل صياح الديك ــ وليس من الضروري ان تكون سوداء فقط ــ اعتبر ذلك نذير شؤم ، ولابد عندئذ من ذبحها فدى عن البيت الذى تصيح فيه .

3 ــ (مالافوليا ــ 93) ــ كان الحفيد نتوني يريد الاقتران ببربارة رغم ارادة جده وأمه ، وكان الجد يؤنبه قائلا : « هل ستتزوجها ؟ وانا من اكون ؟ وامك ، أليس لها عندك شأن ؟ حين اراد ابوك ان يتخذ له زوجة استشارني فى ذلك اولا » .

وفى رواية (المعلم جيزوالدو) كذلك حكاية مشابهة لهذه ، فى الصفحة 105 ، حين يسأل خادم الكنيسة السيدة بيانكا تراو اذا كانت ستتزوج السيد جيزوالدو ، فتجيبه بقولها : « اذا كان أخواي قد رفضا ذلك فأي رأي لي ؟ » ثم اضافت : « ان اخوي هما صاحبا الامر ... وهما وحدهما اللذان يقرران » .

وعندنا ، فى اكثر البلدان العربية ، ان لم يكن فيها جميعا ــ وعلى الاخص فى القرى والبيئات البدوية ، يتم الزواج بمثل هذه الطريقة : ليس عن رغبة أو حب متبادل ، بل باختيار الوالدين ، أو الاخ الاكبر الذى تقضي التقاليد بأن يقوم مقام الوالد فى حالة وفاة الوالد .

4 ــ (مالافوليا 111) ــ ونأتي الآن الى حادثة تبشر بفأل حسن ، وذلك عندما « تتظاهر ابنة العم حنة بسقوط قارورة الخمر من يدها ، وفيها نحو ربعها من النبيذ ، فتأخذ عندئذ فى الهتاف : افرحوا! افرحوا !.. ان اندلاق الخمر فال حسن ! »

عندنا يقال مثل هذا عن القهوة ، لا عن الخمر ، والاختلاف هنا بحكم البيئة والتقاليد فقط ، وذلك لان القهوة هي دليل الضيافة الحميمة الاعم استعمالا

لدى العرب ، وهي في ذلك كالخمر عند الايطاليين والغربيين عامة .

5 ـ (جيزوالدو 273) غضب جيزوالدو غضبا شديدا حين بلغه ان ابنته ايزابيلا قد هربت من المدرسة الداخلية، واصابه ما يشبه الصدمة المفاجئة، فاضطروا الى استدعاء الحلاق ليسحب منه دما .

كعلاج بدائي في بعض حالات المرض يلجأ الكثيرون في بعض البلاد العربية ـ ان لم يكن في جميعها ـ الى من يسحب منهم دما ـ وفي هذا نجد من يستخدم العلق لمص الدم ـ وهناك حلاقون ـ رايت بعضهم بنفسي في القدس قبل عدة اعوام ـ يعنون بتربية العلق في قوارير زجاجية كبيرة لهذا الغرض ، وهم يستخدمونه بالصاقه على ظهر المريض او عنقه لامتصاص شيء من دمه . وهناك من يستخدمون الشفرة او موسى الحلاقة ، يشطبون بهما ظهر المريض او اذنيه . كما ان العادة الاكثر شيوعا هي استعمال كاسات الدم لاراحة المريض ، ولاسيما اذا كان يشكو من ضيق الصدر او النزلة الصدرية ، او ما الى ذلك .

من هذه النماذج نرى اننا ازاء عادات متشابهة كل التشابه في البيئة الصقلية الفيرغوية وفي البلدان العربية . ولا يبدو لي شيء من الغرابة في ان تكون هناك سمات عربية في هذه العادات الصقلية ما دامت هي نفسها شائعة في الاقطار العربية حتى اليوم .

— * —

3 ـ الامثال والحكم :

في الامثال والحكم نجد دائما خلاصة حميمة لتجارب الشعوب عبر الاجيال ، كما نجد الصورة الاصيلة للعقلية والروح والاخلاق التي اكتسبها شعب ما نتيجة تجارب وصلات طويلة مع الشعوب الاخرى، سواء اكانت هذه الشعوب صديقة ام عدوة ، قريبة ام بعيدة .

وفي (اسرة مالافوليا) بنوع خاص اهتم فيرغا كثيرا ، وعامدا ، بالامثال الصقلية ، وراح يرددها بكثرة في كل فصل من فصول الرواية بمقدرته الفنية الفائقة التي نعرفها . ومن المؤكد اننا نستطيع ان نستخلص منها صورة المجتمع بكثير من الدقة ، سواء من الوجهة الخلقية ام الاجتماعية .

والواقع ان فيرغا قد استطاع ان يعطينا كل ذلك ببراعة الفنان الاصيل .

وهنا ايضا نجد المجال واسعا للتبصر والملاحظة . ومن بين الامثال الصقلية التي اوردها فيرغا في روايته (اسرة مالافوليا) اختار المجموعة التالية ، مع ما يقابلها من الامثال العربية العامية بشكل خاص ، (ولكنني مضطر الى ايراد هذه الامثال بغير اصلها العامي) :

1 ـ ما كان اوله شرطا فآخره سلامة ـ
1) Quel che e' di patto non inganna

2 ـ عمر الشقي طويل ـ
2) Uomo povero ha i giorni lunghi

3 ـ نم بخير يا جاري لكي انام معك ـ
3) Augura bene al tuo vicino che qualcosa te ne viene

4 ـ بعيد عن العين بعيد عن الخاطر ـ
4) Lontano dagli occhi lontano dal cuore

5 ـ الصديق عند الضيق ـ
او :
ـ عند الشدائد يعرف الاخوان
5) Carcere, malattie e necessita', si conosce l'amista'

6 ـ كل واحد يهيل النار على قرصه ـ
6) Ognuno tira l'acqua al suo mulino

7 ـ البيت الذي ليس له كبير ليس له مشير ـ
7) Ascolta i vecchi e non ti sbagli

8 ـ الرجل يمسك من لسانه ـ
8) L'uomo per la parola e il bue per le corna

9 ـ الدم لا يصير سما ـ
او :
ـ الدم لا يصير ماء ـ
9) Il sangue non e' acqua

10 ـ من يلعب بالماء تبتل ثيابه ـ
10) Chi cade nell' acqua e' forza che si bagni

11 ـ الحب والبغض ليسا باليد ـ
11) Amare e disamare non sta a chi le vuol fare

12 ـ من كان لا خير فيه لقديمه لا خير فيه لجديده
12) Chi cambia la vecchia per la nuova peggio trova

13 ـ من اكل على ضرسه نفع نفسه ـ
13) Chi ha bocca mangia, e chi non mangia muore

14 ـ شيء خير من لا شيء ـ
او بالعامية : (ريحة الجوز ولا عدمه) ـ
14) Meglio poco che nulla

15 ـ كل طير يحن الى عشه ـ
15) Ad ogni uccello il suo nido e' bello

16 ـ القناعة غنى ـ
16) Piu' ricco e' in terra chi meno desidera

17 ـ من عاشر القوم اربعين يوما صار منهم ـ
او : من يدخل بلد العور يقلع عينه ـ
17) Chi va con zoppi all' anno zoppica

18 ـ مال الحرام لا يدوم ـ
18) Roba rubata non dura

19 ـ ليس للجائع آذان ـ
وبالعامية : (الجوعان مالوش اذان)
19) Ventre affamato non ragiona

20 ـ الملدوغ يخاف من جرة الحبل ـ
20) Le cose lunghe diventano serpi

— * —

والآن بعد ان فرغت من استعراض هذه الامثلة والنماذج العديدة ، والمشابه بين عادات وامثال وتعابير متعددة من بيئة روايتي فيرغا الكبريين والبيئات العربية ، لست اريد ان أجيء بحكم نهائي جازم فى تأثير العرب فى اعمال فيرغا الادبية ، بل اترك هذا لكم انتم . أما انا فقد اقتصرت مهمتي على ان القي ، بقدر الامكان ، نورا جديدا على بعض اعمال فيرغا الادبية ، محاولا بذلك فتح طريق جديدة لمن يشاء ان يتوسع فى دراسة فيرغا وأدبه الجميل المنتزع من البيئات الشعبية الصقلية المناضلة لاجل العيش ، والمكافحة ببطولة جبارة فى سبيل التغلب على حتمية الاقدار القاسية .

وقبل ان اختم هذه الدراسة العاجلة اود ان اذكر ما قاله لويجي كابوانا ، رفيق فيرغا ومواطنه وزميل مدرسته الادبية ، فى هذه الواقعية الفيرغوية الصميمة ، وهو : « ان فيرغا حينما تخطر على باله وضع فكرة قروية فى صورة فنية ، لا يقتصر على جمع بعض المعلومات ، بل ينقل صورة أرضهم . ليس كافيا لديه ان يكون اولئك الاشخاص ايطاليين ـ الفلاح الايطالي كلمة تجريدية ـ انه يذهب ابعد من ذلك كثيرا : يريد ان يكونوا صقليين .. يريدهم ان يكونوا من مقاطعة محددة ، بل من مدينة محددة ، بل من قطعة صغيرة من الارض بحجم الكف ... عند ذاك فقط يقف » .

ان هذا التحديد ينطبق كل الانطباق على روايتي فيرغا اللتين استعرضناهما فى هذه العجالة : فلقد كان ادب فيرغا منتزعا من صميم الارض البائسة التى راى فيها المؤلف النور ـ وان لم يعش فيها كثيرا ، بل قضى الشطر الاكبر والاهم من عمره فى الشمال الايطالي الذى ينعم بالثراء والرخاء والحيوية العاملة فى النهار والليل .

لقد كان فيرغا بحق ابن بيئته ، وكذلك كان ادبه الخالد ، النابع من نفس تشعر ببؤس الآخرين ، وبنضالهم القاسي فى سبيل العيش .

وطبيعي انه ، وهذا ادبه ، لا بد من ان يعكس فيه الروح الصقلية العامة ، بكل ما فيها من رواسب وتأثيرات انطبعت فى حياتها على مدى الاجيال . ومن هذه التأثيرات ما لمسناه الآن من المشابه والسمات العربية فى البيئات التى وصفها فيرغا فى روايتيه الكبريين : (اسرة مالافوليا) و (المعلم السيد جيزوالدو) .